آليات تقويم السلوك في القرآن الكريم

« الترغيب والترهيب نموذجا »

أ.بولخراص كريمة
جامعة تلمسان

مقدمة :

لقد امتن الله على الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم وجعله خليفته في الأرض يتولى أمور إعمارها بما يتوافق ومقصد العبادة التي لأجلها خلق، كما فضّله على غيره من المخلوقات بأن جعل له عقلاً مميّزا مدركا، وروحاً تتمثل في جملة العواطف والأحاسيس والمشاعر التي يختص بها .

هذه النفس أو الروح قد تتعرض لبعض النكسات و النكبات التي تغير من مسارها ودوافعها، فيؤثر هذا التحول على سلوك الجسد واتزانه، وذلك لأن السلوك الخارجي لهذا الإنسان ما هو إلا تجسيد لما تكنه النفس من خلجات ودوافع قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الرعد:11 ولأن أسباب التغيير والانحراف واسعة ومتنوعة تنوع الظروف والعوامل المحيطة بالإنسان، بيّن سبحانه وتعالى في كتابه العزيز سبل إصلاح هذه النفس بإمدادها بجملة من المقومات والإرشادات الربانية التي من شأنها تعديل الانحرافات الفكرية والسلوكية التي تعتريها، في هذا المقال المتواضع سأحاول بيان بعض وسائل تقويم السلوك التي ذكرها سبحانه في كتابه العزيز والمستويات التي انصب عليها هذا التقويم، وفي الأخير ذكر أسلوب الترغيب والترهيب كنموذج لآلية فعّالة أُعملت للتأثير في نفوس المخاطبين وتكليفهم بالسير وفق مقاصد الشارع الحكيم من خلقه. وقبل هذا كلّه تجدر الإشارة إلى جملة من المبادئ أو المسلمات التي تعد منطلقا أساسيا في هذا البحث وهي كالتالي:

إنّ الأصل في الإنسان الإيمان والكفر أمر عارض، والدليل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾الأعراف: 271

الأصل في الإنسان السلوك القويم والانحراف أمر طارئ بدليل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 03 واختيار الخليفة يلزم منه اختيار المناسب لتحمل هذه المهمة، فلا يعقل أن يوكل سبحانه وتعالى هذه المهمة لمن لا يستحقها.

تغيير السلوك لا يكون إلا بتغيير القلوب، والأدلة في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلّم:»ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(1)

لا يمكن أن يقوّم السلوك الإنساني بعيدا عن المنهج الرباني الذي بيّنه الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلّم، لأنه سبحانه أعلم بخلقه وبما يصلح أحوالهم.

آليات تقويم السلوك في القرآن الكريم:

ويقصد بآليات تقويم السلوك تلكم الوسائل والطرق التي بيّنها سبحانه في كتابه العزيز والتي من شأنها تغيير السلوك المنحرف للإنسان وإعادته إلى جادة الصواب، فقد وظّف سبحانه لتحقيق هذا القصد جملة من الآليات منها:

أولا)-:بيان أحوال النفوس:

إنّ المتدبر في آيات الذكر الحكيم يجد أنها لا تكاد تخرج عن موضوعيين أساسيين، فهي إما خاطب عن النفس أو معها، فالإنسان هو المحور الأساسي الذي تدور حوله مختلف محاور القرآن الكريم، وفي ذلك بيان لأهمية هذا المخلوق الذي كرّمه سبحانه بأن عرّفه بخالقه وسخر له جميع ما في الكون من مخلوقات، وقد بدأ سبحانه عند الحديث عن النفوس البشرية من حيث علاقتها بربها و صحة إدراكها، بالنفس المؤمنة، وهي نفس سامية استطاعت أن تتجاوز بإدراكها المحسوس لتصل إلى إدراك عالم الغيب والتيقن من وجوده رغم عدم خضوعه لعالم المحسوسات، هذا الغيب أصبح بالنسبة لها كأنه مشاهد، يؤثر عليها، تنقاد له وتذعن لأوامره دون اعتراض منها أو تقاعس قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب: 63.

إنّ في بيان الصفات التي تتسم بها هذه العيّنة وفي ذكر النتائج المترتبة على انتهاجها هذا السلوك، دعوة غير مباشرة لكل ذي لب أن يتحلى بها وأن يسلك المسلك الذي عبرته.

بعض سمات النفس المؤمنة:

من بين الصفات التي تتسم بها حسبما بينه سبحانه في كتابه الحكيم:

التيقن من وجود الله رغم عدم رؤيته ومعرفة هذا الخالق بالتدبر في مخلوقاته، ولد فيها الرهبة والمحبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾الأنفال: 4.2 ففي هذه الآيات بيان واضح منه تعالى لأوصاف نفس مؤمنة تحلت بجملة من الخصائص التي أدخلتها في زمرة المؤمنين حقا وأخرجتها من دائرة أنواع أخرى من النفوس.

ففي الآيات ذكر لخصال خمس تجمع بين المعتقد والعمل، تؤهل صاحبها للاتصاف بالإيمان(2)، الأولى: وجلت قلوبهم، وفيها بيان لشعور داخلي يحرك النفس عند ذكر ربها مهابة ورهبة، وفي زيادة الإيمان بتلاوة القرآن دليل على عظمة هذا الكتاب وسلامته من أي اعتراض قد يختلج النفس أو يحرك العقل، فالشعور بإعجازه وعظمته هو هو في كل مرة بل ويزيد، وعلى ربهم يتوكلون،أي أنهم يوكلون أمورهم لمن ائتمنوه على مصالحهم، وهو الحق سبحانه وتعالى فهم يعتمدون عليه ولا يفوضون أمرهم لسواه، القيام بالعبادة المأمور بها وقد ذكر سبحانه الصلاة والزكاة دون غيرهما لأهميتهما، فالصلاة أهم عامل من عوامل التواصل بين العبد وخالقه، والزكاة من بين أهم أسباب التواصل والترابط بين الفرد ومجتمعه.

بعض سمات النفس المؤمنة:

الاستقرار والطمأنينة: وينتج ذلك عن حسن توكلها على الله تعالى، ومن الآية السابقة يمكن استخلاص معنيين أساسيين: الأول: حصر التوكل على الله وهذا ما يفسر تقديم شبه الجملة «على ربهم» لأن التقديم والتأخير في القرآن الكريم مبني على مقاصد أهمها، مقصد إظهار أهمية الموضوع المقدم،كما أن في ذكر كلمة الرب إشارة إلى أن العطاء والرزق كلّه من عند الله تعالى لأن الرب هو السيد والمالك والمصلح.

والمعنى الثاني: هو زرع الطمأنينة في النفوس، لأنها تدرك أنّ أمرها بيد الله تعالى وأنها في حمايته وحفظه معتمدة عليه في الأمور كلها. (3)

الإذعان لأوامر الله تعالى فيما فرض عليها من تشريعات وما كلفها به من تكاليف، وذلك لأن هذه الصفات السالفة الذكر إن استقرت في النفس واعتقدتها انعكست إيجابا على السلوك، فكان من ثمرة الإيمان والتوكل، إقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله، والقيام بمختلف التكاليف.

الصبر لقضاء الله وحكمه، والصابر لقضاء الله هو من تدبر أمره وتبين ما يجب أن يأخذ به من سلوك اتجاه ما يثير نفسه من مؤثرات، فلا يندفع اندفاعا أهوجا لا مراعاة فيه لعواقب سلوكه قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ الشورى: 73كما أن الصبر لحكمه، مجاهدة النفس ومعارضة أهوائها بامتثال أوامر ربها وتطبيق جميع أحكامه. (4)

2)- النفس الكافرة:

إنّ تصوير النفوس وبيان ما هي عليه من حسن أو قبح يثير في المتلقي انفعالات إيجابية تجعله يتأثر بها تأثيرا قد ينطبع على سلوكه، بحسب درجة هذا التأثير وبحسب الدوافع المحفزة أو المانعة.

ومن الأمثلة التي ذكرها سبحانه لتوجيه الناس، بيان أحوال النفس الكافرة وما يعتريها من صفات تضع المطّلع عليها في الميزان، للمقارنة بين ما يختلج نفسه وبين ما يعرض أمامه من صور منفرة للسلوك المنحرف عن هدي الله، وأول ما يطالعنا من هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾البقرة: 7.6 .

وهو تصوير واضح لأحوال نفس وقفت موقف الكفر البيّن، هي صورة لإنسان قرر مسبقا غلق جميع نوافذ التلقي، فلا رسول يمكنه أن يزيل الغشاوة عنه ولا دعوة يمكنها أن تبلغه، حاله حال الذي سدّ قلبه، وصمّت أذنه وعميت عينه، فعطّل بذلك جميع أدوات الإدراك الحسية والعقلية، وهو سلوك لا ينجم إلا عن نفس جاهلة لا تستطيع تمييز الحقائق. (5)

بعض سمات النفس الكافرة:

-الجهل: وهو أول سمة تتصف بها هذه النفوس ، فهي نفوس غير متبصرة ولا يمكنها أدراك الأمور على حقيقتها، والسبب في ذلك يعود إلى أنها أغلقت جزءا كبيرا من قنوات الإدراك، فقد عطّلت عقلها بعدم التدبر والتفكير، كما عطلت حواسها بالاقتصار على النظرة التجزيئية،قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: 171

- عدم الاستقرار والثبات: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج: 13 يبين سبحانه في هذه الآيات أن المشرك يتسم بحالتين شعوريتين مضطربتين: عدم الاستقرار وعدم الثبات، وذلك لأن معنى «خرّ» السقوط من مكان مرتفع سقوطا يسمع له خرير، والخرير يطلق على صوت الماء، وصوت الريح وغير ذلك ممّا يسقط من علو، وما وقعت هذه النفوس إلا لأنها غير مستقرة وغير ثابتة في المكان الذي كانت عليه، وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان مؤمن بالفطرة إذ وجوده في المكان العالي وسقوطه منه دليل على أن العلو للإيمان والتوحيد، وفي الانزياح عنه سقوط في هاوية الكفر المشتتة للفكر والمبعثرة لأحوال النفس بين الأهواء والرغبات. (6)

3)- أحوال المنافقين:

بينت آيات الذكر الحكيم وفي إسهاب أحوال نفس تختلف عن سابقتها، هي نفسن أبطنت الكفر وأعلنت الإيمان مراعية بذلك مصالح قاصرة ظنا منها أنها تقدر على مخادعة الله ومخادعة الناس، ولأن هذا السلوك مشين ترفضه النفوس السوية، قصد الشارع الحكيم كشف تفاصيل هذا الموقف بمختلف جزئياته لتعريتها وكشف كوامنها بشكل يتناقض ومنهج التغطية الذي انتحلته، وما أفاض سبحانه في بيان هذه التفاصيل إلا لخطرها على كيان الدين، ولتحذير المؤمنين من هذه الفئة.

قال الزمخشري عند حديثه عن وجه مناسبة عطف آيات المنافقين على الآيات التي قبلها:» افتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا، وهم الذين قال فيهم : ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾النساء: 341 وسماهم المنافقين وكانوا

أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً ، ولذلك أنزل فيهم : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ النساء: 541 ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم وفضحهم، وسفّههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة (7)

كل هذه الصفات وغيرها مما ورد في آيات الذكر الحكيم يمكن تلخيصه في السمات التالية:

بعض سمات النفس المنافقة:

المراوغة وعدم الوضوح

إن السلوك الذي انتهجته مرض نفسي ينبغي الحذر منه.

سوء التقدير وخلط المفاهيم كان نتاج جهلهم وعدم تقديرهم للدعوة المحمدية تقديرا صحيحا.

اضطراب حالهم وعدم استقرارهم، حتى شبه الله حالهم بالتائه في الظلمات المحاول إيجاد طريق للنجاة فلما وجدها أطفأها بنفاقه وكفره

4)- النفس المترددة:

ويمكن التمثيل لهذه العينة بما حدث مع بني إسرائيل، فقد ذكر سبحانه في الكثير من الآيات أحوال أهل الكتاب وخاصة بني إسرائيل وما تميزوا به من نكث للعهود، وتردد في الإيمان، واضطراب في السلوك، وصعوبة في الانصياع لأوامر الله تعالى، نتج عنه تعرضهم لعقوبات كثيرة ومتنوعة من شأنها أن تقوّم السلوك وترده إلى الصواب، إلاّ أن الطبيعة القاسية والمترددة لهؤلاء وقفت موقف المستقيم المتزن حال تسلط العقاب، والمنحرف بمجرد زواله. والآيات الموضحة لانحرافات هذه الفئة كثيرة، يمكن أن نستخلص منها جملة من السلوكات التي حذر منها تعالى وبيّن ضلالهم فيها فيما يلي:

بعض خصائص النفس المترددة –اليهود-

الكفر بالله والافتراء عليه سبحانه،ومواجهة الرسل بالتكذيب والتعذيب والقتل، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً﴾ النساء: 551
كتم الحق وإلباسه بالباطل، والنفاق والتضليل.قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: - 24
الحقد على المخالف والحسد والأنانية، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: 901
الجبن والخوف والتخاذل، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة: 43
نقض العهود والمواثيق حتى مع الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً﴾ النساء: 551

إن في ذكر هذه الخصائص، وبيان موقف الشارع الحكيم منها، تنبيه منه تعالى لكل من اتصف بعدم التثبت من أمره وعدم استقراره، إلى خطورة هذا السلوك وخطورة ما يترتب عليه من نتائج،(8) وفي ذلك دعوة لكل نفس سوية للتخلص من جميع مظاهر التردد وعدم الثبات على الحق.يقول سيد قطب عند حديثه عن الملامح العامة لسورة البقرة: فإذا انتهى السياق من عرض هذه الصور الثلاث - صورة النفس المؤمنة والكافرة والمنافقة - دعا الناس . . الناس جميعاً . . إلى الصورة الأولى؛ وناداهم . . ناداهم كافة. . أن يفيئوا إليها، أن يفيئوا إلى عبادة الله الواحد، والخالق الواحد ، والرازق الواحد ، بلا شركاء ولا أنداد. وتحدى الذين يرتابون في رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتنزيل الكتاب عليه أن يأتوا بسورة من مثله . وأنذرهم إذا تولوا عذابا مفزعاً مرهوباً؛ وبشر المؤمنين وصوّر ما ينتظرهم من نعيم مقيم»(9) فدعوة التوحيد والأمر بالعبادة لم تأت إلا بعد تعريف الإنسان بطبيعته وما تسرب لهذه الطبيعة من انحرافات وأمراض أبعدتها عن خالقها وعن المقصد الذي لأجله خلقت، ليكون على بينة من الطريق الذي ينهجه وعن النتائج المترتبة على سلوكه لهذا النهج.

ثانيا)-: الكشف عن الدوافع المؤثرة في النفوس.

الدافع هو الطاقة الكامنة في الكائن والتي تحدد له أهداف سلوكه وتمهد له طريق إشباع حاجاته، والدوافع قسمين: أولية فسيولوجية تعتمد في إثارتها على عوامل جسمانية داخلية،وتنتشر بين جميع أفراد النوع لا يشذّ عنها أحد نحو الجوع والعطش،.. ودوافع ثانوية تستثار بواسطة عوامل نفسية اجتماعية بعيدة عن التكوين العضوي، وهذا النوع يختلف باختلاف الأفراد والمؤثرات. (01)

لم يغفل سبحانه عند حديثه عن النفس ذكر هذه الدوافع والمؤثرات وبيان كيفية التعامل معها، بل كشف عن مختلف النزعات التي تتجاذبها وتؤثر في سلوكها، فالنفس البشرية تتقاسمها جملة من النزعات والشهوات التي من شأنها التأثير في سلوك الفرد إيجابا أو سلبا، قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران: 41 .

كما فرّق بين ما هو من قبيل الدوافع الأولية التي راعاها وشرّع أحكاما تحافظ عليها لأن في إشباعها بقاء للنوع الإنساني، وشرع أحكاما أخرى لتقويم الدوافع التي تبقى مشروعة ومحفزة للسلوك ما انضبطت بضوابط تحدد مسارها السوي، وحث على ضرورة التخلص من بعض النزعات السلبية ذات التأثير المعرقل للسلوك، نحو التحذير من الرياء والطمع، والظلم وغير ذلك من المؤثرات المرفوضة.

ويمكن للمتأمل في آيات الذكر الحكيم المتعرضة لأحوال النفس وما يؤثر فيها من عوامل ومؤثرات أن يقسمها على النحو التالي:

الدوافع الأولية: وهي دوافع تنتشر بين جميع أفراد النوع البشري لا يشذ عنها أحد لأنها عضوية فطرية ليس لأحد مقاومتها أو التحكم فيها إلاّ من جانب عدم الإسراف والتزام الاعتدال، ومن هنا جاءت آيات الذكر الحكيم مراعية لهذا النوع منبهة عليها بما يتوافق ومقدور المكلف، قال تعالى:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (13) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف: 13 - 23

الدوافع الثانوية: وهي دوافع مكتسبة نتيجة تأثر الفرد بما يحيط به من عوامل لذا

فهي تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات، ويمكن تقسيم هذه العوامل من حيث معالجة القرآن الكريم لها إلى أنواع:

قسم لا يصلح بحال من الأحول نحو الرياء، الحقد، الحسد، التعصب للباطل، فقد بين الشارع الحكيم خطورة الاستسلام لهذه الدوافع لما لها من أثر مدمّر للأفراد والمجتمعات.

قسم يحتاج إلى أن يضبط بضوابط حتى ينتفع منه صاحبه والآخرين من هذه العوامل الغيرة، الإباء، قوة الشخصية، الانتماء، حب الذات..فقد وضع سبحانه وتعالى جملة من القيود التي تحكم هذه النزعات فلا تنحرف بصاحبها عن المطلوب، ولعلّ من أهم هذه القيود ربط جميع الأعمال بمنهجه تعالى.

قسم حث سبحانه عباده على التحلي به لما له من نفع عالم سواء على مستوى الأفراد أو الجماعة، من ذلك العفو، الصبر، الكرم، الرأفة... (11)

يقول سيد قطب:» والمنهج الإسلامي يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله،ورذائله، وقوته، وضعفه، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن ولا يحتقر دوره في الأرض، ولا يهدر قيمته، كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية ولا يخلع عليه شيئا من خصائصها..» (21)

ثالثا:القدوة الحسنة.

القدوة في الإسلام من الأمور المحركة للإنسان اتجاه السلوك القويم، وقدوة الناس جميعا الأنبياء والرسل والصالحين من عباد الله تعالى، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: 12 وللمتأمل في آيات الله وما ذكرته من صفات تميز بها أنبياء الله ورسله يجد أنها اتسمت بجملة من الخصائص منها:

- بعث الرسول من نفس الطبيعة التي خلق منها المبعوث إلية حتى لا يكون هناك بونا شاسعا بين الطبيعتين لتحدث عملية التأثير والتأثر قال تعالى:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ الأنعام: 9.

- توافق لسان الرسول مع لسان قومه: وهو أمر لازم لتحقق البيان عن الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبراهيم: 4 هذا أصلٌ ضروري في إقامة الحجة

بهداية الإرشاد التي هي أثر من آثار رحمة الله تعالى بالناس.

- تعرض الأنبياء والرسل لمختلف الابتلاءات والمصائب التي من شأنها أن تلحق المدعوين مما يخفف عنهم مصابهم ويبيّن لهم سنة الرسل في التعامل معها، ويبث فيهم روح العزيمة والثبات.قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة:412.

- قيام الرسل بمختلف التكاليف التي كلّف بها المخاطبون، وهو أمر يسهّل على المتلقي امتثال أوامر الله تعالى ويظهر عدل الرسالة والمساواة بين أفرادها.

رابعا: مخاطبة العقل والروح.

حين يثير القرآن الكريم قضية من القضايا فإنه يخاطب العقل مقترنا بإثارة العواطف والانفعالات النفسية، وهو بذلك يربي العقل والعاطفة سيرا وفق فطرة الإنسان في البساطة وعدم التكلف، انطلاقا من المحسوس المسلم به والدعوة إلى التدبر في هذا المحسوس المستلزم عنه وجود الله تعالى وتصديق جميع ما صدر عنه سبحانه، وحتى تتم عملية الإثارة وتحقق المقصود، أعمل سبحانه جملة من الآليات المحركة منها:

-الدعوة إلى التدبر والتفكر في خلق الله تعالى، وهذه الوسيلة من أهم الآليات التي استخدمها سبحانه في إصلاح العقيدة وتثبيتها، فقد حث سبحانه في الكثير من الآيات على التفكر والنظر في قدرة الله وآثار رحمته وعجيب صنعه في الكون المتأمل وحتى في النفس المتأملة. (31) قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: 581 .

- استعمال أسلوب الجدل والانطلاق من مسلمات موجودة للوصول إلى نتائج منطقية، يقبلها العقل البشري ويسلم لها، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء: 22.

-استخدام الحوار الهادئ المبني على الحجج والبراهين لإثبات صدق الرسالة، والأمثلة على هذا النوع كثيرة ولع من أبرزها المحاورات المنطقية التي دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وقومه لإثبات وحدانية الله تعالى.

كل هذه الأساليب وغيرها أعملها الشارع الحكيم لتحفيز العقل ودعوته للتدبر، وفي المقابل استخدمت أساليب مختلفة لإثارة الروح وتحريكها منها:

-التذكير بنعم الله على عباده وبيان ما سخر لهم من نعم مادية ومعنوية تستوجب الشكر مستعملا في ذلك أسلوب الاستفهام الإنكاري تارة والامتنان تارة أخرى،.. قال تعالى:﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾الرحمن تكرر هذا الاستفهام في سورة الرحمن 13 مرة كل مرة تذكر بعد عدّ جملة من النعم، والاستفهام إنكاري يقصد منه التعجب من منكر هذه النعم وإنكار صاحب الفضل فيها.

- الترغيب والترهيب ويعد من أهم العوامل المؤثرة في النفس البشرية لذا حصر سبحانه وتعالى في بعض آياته مهمة الرسل في القيام بهذا الأمر،ولأن هذا الأسلوب على قدر كبير من الأهمية آثرت أن أفرده بالبحث في مبحث مستقل سيأتي لاحقا إن شاء الله.

ثانيا: مجالات الإصلاح القرآني:

بعد أن بين سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أحوال النفس وأعمل الآليات التي من شأنها تقويم سلوك المتلقي وتغير الكثير من الانحرافات التي أصابته، بقيت الإشارة إلى المجالات التي انصب التغيير والتعديل عليها والتي يمكن تقسيمها على النحو التالي:

تصحيح المفاهيم وتعديل التفكير:

يعد فساد المفاهيم أخطر كثيراً وأشق علاجاً من فساد السلوك، لأن بناء المفاهيم وإصلاحها يحتاج إلى جهود كبيرة مقارنة مع تلك المستعملة في إصلاح السلوك، ولأهمية هذا الجانب ركزت آيات الذكر الحكيم على المفاهيم المنحرفة التي كانت سائدة زمن التنزيل والتي لا يخلو منها أي عصر أو زمان من هذه المفاهيم:

- تصحيح المعتقدات الفاسدة بالدعوة إلى التوحيد وبيان ضلال الديانات السابقة أوانحرافها، وانتقاد متبعيها ووصفهم بأوصاف منفرة من شأنها صدّ كل من له نفس سوية، والمتأمل في المكي مثلا يجد أن معظم مواضيعه لا تخرج عن هذا الأصل.

- ذم التقليد الأعمى، والمقصود منه التقليد غير المستند إلى دليل، فحال هذا المقلد حال الأعمى الذي يملّك نفسه لأعمى آخر فكلاهما في الضلال سواء والآيات كثير في بيان هذا السلوك وذمه.

- بيان مصدر السلوك الإنساني:الأصل أن الإنسان يعتمد في سلوكه على سلطة الدين وهي سلطة خارجية لها القدرة على ضبط تصرفات الإنسان وأعماله، حيث تشكل أداة تحليل وتمحيص للسلوك، فما كان موافق لأحكام الله ومقاصده، عدّ سلوكا قويما، وما تعارض مع مقصود الشارع وحكمه ردّ وذم.قال تعالى:
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب: 63.

- تعديل الدوافع وضبطها: بين سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن النفس البشرية تحكمها جملة من الدوافع والرغبات بحكم طبيعتها التي فطرت عليها، هذه الدوافع عمد سبحانه على ضبطها والتقليل من مجالها، فبعد ما كان الإنسان يحرك بدافع جمع المال وحب التملك والرئاسة وغيرها من المؤثرات المحدودة إما بالزمان أوالمكان أو بكليهما، أصبح دافعه أسمى وأعلى فهو يتحرك ويبادر لتحقيق رضوان الله تعالى وللوصول إلى خير الآخرة الدائم، ونشر هذا الدين الذي من شأنه أن يحقق سعادة البشرية في الدنيا والآخرة. ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: 51

2)- تصحيح السلوك وتعديل العادات:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم في مجتمع يتسم بجملة من الخصائص وتحكمه مجموعة من المعتقدات والعادات، أما المعتقدات فبين سبحانه ضلالها وأمر بالتوحيد الخالص لله تعالى، كما حرّم كل ما يشوبه الشرك أو الضلال، ووضع قيودا وسدّ ذرائع من شأنها أن تفضي إليه. وأما العادات فما كان منها غير معارض لهذا الدين ولا مناقض لمقتضياته ومقاصده، ترك العمل به ضمانا للاستقرار والثبات في التعامل، فقد أبقت الشريعة على أسرهم وأثبتت أنسابهم دون بحث عن صحة الزواج وموافقته للشروط، واعتمدت بيوعهم، ومعاملاتهم المالية السابقة، كما تجاوزت لهم عن مختلف الانحرافات التي سبقت فترة الإسلام وما يترتب عليها من نتائج، والذي فيه انحراف عن المنهج الذي رسمه الشارع الحكيم بين انحرافه، وبين وسائل التعديل وأعطى البدائل.

- الترغيب والترهيب، كآلية من آليات تقويم السلوك:

خاطب الشارع الحكيم المجتمع الذي نزلت فيه الرسالة، بلغة يعرفونها مراعيا في ذلك، أحوالهم، وعاداتهم، ومتطلباتهم، ولما كانت متطلبات النفس البشرية لا تخرج عن أمرين أساسيين هما:

جلب النفع والسعي لتحصيله، ودرء الضرر والعمل على اجتنابه، راعى الشارع الحكيم هذا الجانب، فخاطبهم بطريقة تتوافق مع هذا الأصل، مستخدما أسلوب الترغيب والترهيب الذي اتخذ منه وسيلة فعّالة لتحقيق التوازن السلوكي لدى الإنسان، وتحقيق مقاصد الشارع الحكيم منه.

فالترغيب إذا هو الطريقة التي استخدمها الشارع الحكيم قصد جلب المخاطبين واستجابتهم لدعوته تعالى وقبول الحق الذي أمر به.

أمّا الترهيب فهو الآلية التي أعملها سبحانه لتخويف المخاطبين وتحذيرهم من عواقب عدم الاستجابة له والخروج عن أحكامه.

ويمكن للمتدبر في النصوص القرآنية الواردة في هذا السياق أن يلحظ وبوضوح العناية الفائقة التي أولاها الشارع الحكيم لهذا الأسلوب، حيث نص في العديد من الآيات على أن الترغيب والترهيب مقصد من مقاصد التنزيل، نحو قوله تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ الكهف2،1، وذكر في آيات أخرى أن أساس رسالات الرسل عليهم السلام يقوم على الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأنعام:84 كما اتبع منهجا دقيقا في توظيفه لتحقيق قصد التأثير النفسي، والتغيير السلوكي للمتلقي، مراعيا ففي ذلك أحوال المكلفين وطباعهم، وما كان سائدا عندهم من عادات، وعليه يمكن توضيح هذا المنهج ببيان طريقة القرآن الكريم في توظيف هذه الآلية، والوسائل المستخدمة لتحقيق هذا القصد، ثم ذكر النتائج.

أولا:طريقة القرآن الكريم في توظيف الترغيب والترهيب، ويقصد بها الكيفية التي عرض بها الشارع الحكيم هذا المقام، ويمكن لمن تتبع هذه الطريقة أن يلحظ أنها تتنوع إلى ثلاثة أقسام:

1- اقتران الترغيب بالترهيب، بأن يذكر الترغيب مقرونا بالترهيب ، وتتبع البشارة بالنذارة ، وهي السمة البارزة على المنهج القرآني، لما لهذا الأسلوب من أثر فعال على نفوس المخاطبين، (41) وقد أطبق العلماء على أن شفع الترغيب بالترهيب من خصائص القرآن وعادته،(51) وجزم الشاطبي بأنه ما ورد في القرآن الكريم من ترغيب إلا وقارنه الترهيب « في لواحقه أو سوابقه، أو قرائنه، والعكس.»(61) واستدل على ذلك بتتبع آيات الذكر الحكيم، حيث وجد بأن القاعدة في ذلك أن لا يذكر ترغيب إلا وأتبعه بترهيب والعكس، على أنه يمكن أن يذكر بصورة متساوية أو أن يغلب بعضه على بعض وفق ما يقتضيه المقام.

2) . تغليب أحدهما على الآخر وذلك بأن يذكر الترغيب بصورة آكد وأوضح من الترهيب، أو أن يغلّب الترهيب على الترغيب إذا اقتضى المقام ذلك،(71) ولعل ورود هذا المقام بهذه الصفة يرجع إلى سببين رئيسيين. أما السبب الأول فيعود إلى مراعاة أحوال المخاطبين به، ويعود السبب الثاني إلى طبيعة الموضوع المراد بيانه.

. تغليب الترغيب أو الترهيب بحسب أحوال المخاطبين: ويمكن أن يلتمس ذلك من خلال المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في مخاطبته للمشركين أو أهل الكتاب المعرضين عن طريق الحق والرافضين اتباعه، فإذا لمس الشارع الحكيم من المخاطبين هذا العزوف وهذا العناد، خاطبهم بأسلوب يتوافق مع هذه الحال، حيث يغَلِبُ عليهم جانب الترهيب وذلك بأن يكلمهم بطريقة تهز كيانهم وتزلزل عنادهم، أما إذا وجه الخطاب للمؤمنين فالأسلوب يتغير، حيث يغلب عليه جانب الترغيب وإن كان الموضوع المأمور به نفسه.

هذا ويمكن القول أن الشارع الحكيم لم يقتصر في مراعاته لأحوال المخاطبين على الجانب الإيماني للأفراد أو الجانب النفسي إن صح قول ذلك، وإنما تجاوزه ليشمل الجوانب الحياتية لمجتمع الرسالة، قاصدا من وراء هذا النهج إصلاح الفرد والمجتمع على حد سواء، فإذا عالج القرآن الكريم موضوعا من المواضيع السائدة بين المكلفين، راعى في معالجته له مدى ترسخه، وفشوه بينهم، ثم يخاطبهم بما يتوافق مع هذا التأثير.

- تغليب الترغيب والترهيب بحسب أهمية الموضوع: بأن يذكر أحد المقامين أكثر من الآخر، لا لأن أحوال المخاطبين استدعت ذلك وإنما لكون الموضع المعالج يكتسي

أهمية في نظر الشارع، فإن أراد حصوله استعمل مختلف وسائل الترغيب لتحقيق هذا القصد، وإن قصد منعه غلب جانب الترهيب في ذلك.(81) ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام، سورة الأنعام، فقد جاءت تحمل من الترهيب والوعيد ما يتناسب وطبيعة المواضيع التي عالجتها هذه السورة، فالشارع الحكيم عمل على إبطال ما كان عليه المشركون من ضلالة، حيث جعلوا لله شركاء وأندادا واتخذوا له الصاحبة والولد بغير علم، (91)كما أعرضوا عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ورفضوا تصديقه، رغم جميع الدلائل والحجج الصادقة التي قدمها لهم، بل وأكثر من ذلك قد استهزؤوا من هذا الدين وعملوا على صد كل من يصغي إليه، (02)كما كانت تحكمهم مجموعة من العادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة التي عمل سبحانه وتعالى على بيان ضلالهم فيها، من ذلك تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، كل هذه الأمور تقتضى تأكيد التخويف وإطالة التأنيب وزيادة الترهيب للتأثير في نفوس المخاطبين وصدهم عن هذه المفاسد، ومع ذلك لم تأتي هذه السورة خالية تماما من بواعث الترغيب في هذا الدين وبيان رحمة الله تعالى بعباده. (12)

- ذكر أحد المقامين دون الآخر: وذلك بأن تشتمل سورة كاملة أو مجموعة من الآيات على مقام الترغيب دون ذكر الترهيب والعكس، وقد اعتبر الشاطبي أن ورود هذا النوع في الكتاب العزيز من الأمور القليلة التي لا تؤدي إلى خرم القاعدة، إذ القاعدة في ذلك، أنه ما ورد ترغيب إلا وأتبعه ترهيب والعكس كذلك، سواء كان ذلك بصورة متساوية، أو غلب أحد الطرفين على الآخر، وقد أرجع الشاطبي سبب ورود هذا النوع في الكتاب إلى قضايا أعيان، أي أن هذه الآيات وردت في أشخاص معينين ولاعتبارات خاصة. (22)

ثانيا: وسائل وأساليب الترغيب والترهيب. إن المتمعن في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام، يمكنه أن يلحظ وبوضوح، ذلك التنوع والتعدد في الوسائل والأساليب التي اتخذ منها الشارع الحكيم مادة لتحقيق هذا القصد، مراعيا بذلك أثر هذا التنوع على النفوس البشرية وقوة تأثير كل أسلوب بحسب ما تقتضيه أحوال المخاطبين وما يستدعيه المقام، ومن جملة ما استخدمه سبحانه تعالى في ذلك: ضرب الأمثال، وسرد قصص وأخبار الأولين، وذكر أحوال يوم القيامة، كما رغب سبحانه وتعالى ورهب المخاطبين بتذكيرهم بصفاته، من إعلامهم بعلمه بما يعملون، وذكر عظيم

قوته، وبيان قدرته، وغيرها من الصفات التي بينها في هذا المقام، هذا ولا يقصد من ذكر هذه الذرائع حصر وسائل الترغيب والترهيب في هذه الأنواع، وإنما هي نماذج سيقت لكثرة ظهورها في النص القرآني ولقوة تأثيرها على النفوس البشرية. ويمكن بيان ذلك كمايلي:

1- أثر الأمثال في تحقيق الترغيب والترهيب:

المثل في القرآن الكريم، هو وسيلة استخدمها سبحانه وتعالى ليبرز من خلالها المعنى المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، وذلك لأن المعاني المعقولة يصعب استقرارها في الذهن ما لم تصغ في صورة حسية قريبة للفهم. لهذا السبب اعتنى المنهج الإلهي بتوظيف الأمثال في تقرير مبادئه، وتثبيت معانيه، وتأكيد أحكامه، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أهمية هذا الباب في العديد من النصوص منها: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت34 وقوله أيضا: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر72)، وللعلماء كلام جيد في بيان الأمثال القرآنية يبرز مدى وعيهم وإدراكهم لأهمية هذا الأسلوب، فقد عدّه الشافعي ضمن العلوم الواجب على المجتهد معرفتها (32) لما لهذا النوع من أثر في الترغيب فيما ما يجب امتثاله، والتحذير ممّا يجب اجتنابه، وذكر الزركشي، أن الحكمة من ذكر المثل تعليم البيان، وبأنه من خصائص هذه الشريعة.(42) وقال الزمخشري:» ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد....» (52)

وبهذه الأقوال يتبين أن للمثل أثرا واضحا في التأثير على النفس البشرية ممّا يؤدي إلي تحقيق ما قصده سبحانه وتعالى من معاني الترغيب والترهيب، ويمكن القول أن إيراد المثل في النصوص القرآنية أخذ مظهرين بارزين، أحدهما التمثيل بالأمور المشاهدة للمكلف أي أن يعالج سبحانه وتعالى موضوعا من المواضيع ويمثل له بأمور معهودة عند المخاطبين مشاهدة لهم، سواء تعلق الأمر بذكر أحوال طبيعية أو أمور إنسانية ، والثاني التمثيل بالأحوال الذاتية، ويتحقق هذا القصد من خلال توظيف أمور نفسية يتوق المخاطب لها أو ينفر منها، كأن يمثل له سبحانه وتعالى بما لا يحبه

على نفسة، أو أن يرغبه بتحصيل ما يحب لنفسه أو لغيره.

2- أثر القصص في مقام الترغيب والترهيب:

ويقصد بالقصص في القرآن الكريم، ما ورد فيه من أخبار عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة،قصد تحقيق الغرض الكلي الذي جاءت لأجله الرسالة.(62)وذلك لأن الذكر الحكيم كتاب هداية ربانية نزل قصد إرشاد العباد لخالقهم والعمل على تحقيق مقصد العبادة التي لأجلها خلقوا، فالنص القرآني لا يقصد من ذكر القصص وأخبار الأولين، سرد تاريخ هذه الأمم، بدليل عدم اعتناءه بتفاصيل هذه الوقائع، وعدم ترتيبها من حيث الذكر، وإنما قصد من ذلك التنبيه على سنن الله تعالى في خلقه وبيان أثر أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية،(72) هذا ما نص عليه سبحانه في العديد من المواضع نحو قوله:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب86)، وقوله أيضا: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران731)، أي أن الغرض من عرض أحوال الأولين النظر والتفكر، والاتعاظ، وقد نبه العديد من العلماء على ضرورة معرفة المقصد الحقيقي من ذكر القصص، قال الغزالي:» .... وأنّ من سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنّ السمر غير مقصود، وإنّما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم ولأمته.....» (82) هذا ويمكن لمن استعرض ما قصه سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما تحمله هذه الأخبار من بواعث للخوف والترهيب، ومجالب للرجاء والترغيب، وإن كانت بواعث الترهيب هي الأغلب، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن جملة هذه الخطابات موجهة نحو المشركين قصد دعوتهم للتوحيد، والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت طباعهم تحمل من القسوة والجحود ما لا يمكن لمقام الترغيب أن يؤثر فيه، خاطبهم بما يتوافق مع هذه الحال، وذلك بأن ذكرهم بما كانت تملكه الأمم السابقة من قوة وكثرة عدد، إلا أن هذه القوة وهذه الكثرة لم تقهم . لما توفرت فيهم دواعي الإيمان ولم يؤمنوا . من عذاب الله وسخطه.ويمكن القول أن قصص وأخبار الأولين في القرآن أخذ مظهرين: الاستعانة بقصص الأنبياء والمرسلين، وقصص الأحداث الغابرة.

3. أثر ذكر أحوال يوم القيامة في مقام الترغيب والترهيب

وذلك بأن يذكر سبحانه وتعالى أحوال يوم القيامة، وما أعده لعباده المؤمنين من نعيم، والجحيم الذي خص به المشركين والعاصين، والقرآن الكريم مليء بمثل هذا النوع من الآيات، لما يترتب على توظيف هذا الأسلوب من أثر في نفوس المخاطبين، بحيث ترغب النفس في الخير إذا علمت ما تحصل عليه أهله من جزاء، وترهب من الشر إذا عرفت ما لقاه أصحابه من شقاء، ويمكن القول أن الترغيب والترهيب بذكر يوم القيامة ينقسم إلى نوعين هما:

. الترغيب والترهيب بذكر أحوال يوم القيامة: ويشمل هذا النوع ما ذكره سبحانه وتعالى من أهوال تحدث في هذا اليوم ، وكيفية تلقي الناس لها، والحالة النفسية التي يكونون عليها، وهي أمور تتعلق في أغلبها بمقام الترهيب، وإن كانت لا تخلوا من بعض ملامح الترغيب

. الترغيب والترهيب بذكر أهل الجنة وأهل النار:

ويتناول هذا القسم ما أعده سبحانه وتعالى من نعيم لعباده المخلصين، والعقاب الذي سلطه على العصاة المجرمين، بطريقة يتساوى فيها المقامين، وذلك لأنه تعالى وعد المؤمنين خير جزاء وبين بالتفصيل المآل الذي يؤولون إليه يوم القيامة وأحوالهم فيها، كما توعد المشركين والعصاة بالعقاب وبين المصير الذي يرجعون إليه والحال التي يكونون عليها نتيجة هذا العذاب.

إنّ المتمعن في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام يمكنه أن يلحظ أنّ المنهج الذي سلكه سبحانه وتعالى في عرضه لهذه الأحوال، قد اهتم ببيان ما يلقى الناس في ذلك اليوم من جزاء من جانبين، الجانب المادي، والجانب المعنوي أوالنفسي، لما لبيان هذين القسمين من أثر معال في تحريك الدوافع الإيجابية في النفس البشرية وانعكاسها على السلوك.

الخاتمة:

. إن الحديث عن انحراف السلوك يعنى الحديث عن نفس سوية تتسم بجملة من الخصائص التي تؤهلها لتحمل قصد الخلافة في الأرض وتحقيق قصد العبادة الذي خلقت لأجله، هذه المقومات تكسب المتصف بها خصائص لا تظهر إلا في النفس المؤمنة التي أدركت بأن تعديل السلوك الإنساني لا يتم بمعزل عن المنهج الرباني الحكيم.

. قد ينشأ الانحراف نتيجة تأثير العوامل الاجتماعية المحيطة بالفرد، وقد يكون سببه ترك النزعات النفسية السلبية بلا ضابط أو قيد.

. إن أي عملية إصلاحية لا يمكن أن تؤدي دورها في ظل جهل بالموضوع المراد إصلاحه أو بوسائل التعديل، لذا أولت آيات الذكر الحكيم أهمية كبير للتعريف بالنفس البشرية وبما يتجاذبها من أهواء ونزعات، ثم بينت كيفية التحكم في هذه الأهواء بشكل متوازن يراعى فيه متطلبات النفس والجسد والروح.

. تعد نزعة حب الذات والبحث عن المنفعة ودرء المفاسد من أهمّ النزعات المتحكمة في النفس البشرية لذا استخدم الشارع الحكيم أسلوب الترغيب والترهيب وبقوة بما يتوافق مع هذا الدافع.

الهوامش

أخرجه البخاري، كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه، حديث رقم 25، و مسلم في باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم 9951

الصورة النفسية في القرآن الكريم، دراسة أدبية، د سليم محمد هياجنة، عالم الكتب الحديث، عمان، الطبعة الأولى، 7002/8241،ص 72

المرجع نفسه، ص82

الإسلام وتأصيل علم النفس، د هناء يحي أبو شهبة، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ص473

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة عشر، 0991/0141، ج1/ص73

صورة النفسية في القرآن الكريم، ص/96

كشاف،الزمخشري، تحقيق:عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا طبعة، ج1،ص39

نهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، د محمد السيد يوسف، دار السلام للطباعة النشر والتوزيع،القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 4002/4241، ص801-901

في ظلال القرآن، سيد قطب،ج53/1

0- سيكولوجية السلوك الإنساني، د عبد الفتاح محمد دويدار، دار المعرفة لجامعية، مصر، بلا طبعة، سنة5002، ص37

1- ينظر: الإسلام وتأصيل علم النفس، د هناء يحي أبو شهبة، ص22. 13

2- منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، د محمد السيد يوسف،ص604

3- المرجع نفسه، ص841

4- . الكشاف، الزمخشري، ج1/ص15

51- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج2/ ص771، أنظر: فتح القدير، الشوكاني، ج1/ ص45).

61- الموافقات، أبوإسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، ، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1141/ 1991 ،مج2، ج3، ص942

71- المصدر نفسه، ص052

81-المصدر نفسه، ص52)، بتصرف

91- تفسير القرآن العظيم ابن كثير، ج2/ ص611

02. المصدر نفسه، ج2/ص731 بتصرف

12 . الموافقات، ج3/ ص52)

22- المصدر نفسه، ج3، ص252

. أحكام القرآن، محمد ابن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة، 0041/ 0891، ج1/ ص 22

. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، خرج حديثه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، ، دار الكتب لعلمية، بيروت، الطبعة، الأولى، 8041/ 8891، ج1/ ص275

الكشاف، الزمخشري، ج1/ ص73

. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة، 1241/0002، ص/ 613

. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: فؤاد عبد الباقي،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة الطبعة الأولى، 6731، 7591،ج1/ ص411

. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 9141، 8991)